٤- صوت المعاناة

أثناء الحادث الأليم، رفرفت العناية الإلهية فوق الفتى"غريب"، فقد استطاع أن ينحرف بسيارته هاربًا من الموت نحو يمين الطريق فسقط بسيارته في أرض زراعية بجوارها ترعة عميقة، قفز من السيارة خوفا من سقوطها في الماء، فسقط على ذراعه اليسري فكسرت، وشجت قطعة حديدية بالأرض الجانب الأيسر من جسده، وتجمع المارة حوله لإسعافه، والتقط أحدهم تليفونه المحمول، وطلب آخر رقم فرد عليه"سمير"محاسب فندق "ماريوت"، الذي أبلغ الإدارة فأخرجت سيارة معه لنجدته، وعندما وصل وجده ملقى على الأرض ينزف، وسيارته على بعد خطوات من حافة الترعة لم تصب بأذى، صرخ في المارة لتقاعسهم عن نجدته، كان الكل يخشى عاقبة الشهامة، فإذا نقله متطوع إلى العلاج، ربما يتم اتهامه بأنه الجاني، ولذا لم يجرؤ أحد ممن حوله على نقله إلى المستشفى خوفًا من المسئولية.

بسرعة حمله"سمير" إلى أقرب وحدة صحية لإنقاذه، وفي غرفة الاستقبال تم عمل الفحوصات اللازمة، وتبين من الأشعة الطبية وجود شرخ بذراعه الأيسر، وتم تجبيسه، أما الجرح القطعي بجانبه الأيسر فقد كان عميقًا، وتمت خياطته بعشرةغرز.

بعد أن عاد "غريب" إلى الوعي، طلب من فوره العودة إلى المنزل حتى لا يسبب القلق لأمه، وافق الطبيب على خروجه، وكتب له قائمة بالعلاج المناسب، حاول النهوض وحده فلم يستطع، كانت الآلام بجسده شديدة، فأمسك به "سمير"وحمله إلى السيارة، واصطحبه إلى القرية، حتى أدخله منزله.

عندما شهدته أمه غارقًا في دمائه وذراعه ملفوفة في الجبس كادت أن تموت

حزناً، ولولا أن "سمير" طمأنها ببضع كلمات لسقطت مغشيًا عليها، وتم نقله إلى غرفته، ونام نومًا عميقًا بسبب كثرة الحقن المخدرة، والتي أخذها لتخفيف حدة الآلم.

كانت الأحداث الأليمة المطبوعة في عقله الباطن تمر أمام عينه، وهو نائم، وقرب الساعة الواحدة صباحًا، وهو على سريره، مر على باله التاريخ المطبوع فوق شريط الذكريات منذ أن ودعته "رجاء" وهو يركب استعداداً للسفر.

دار في رأسه طنين الذكريات، كان ممدّدًا فوق الفراش، يرى بروحه، ويسمع بأذنيه كل أصوات الماضي البعيد، كأنها تناديه، وتلح عليه بالصور، فيشاهد بحواسه، ويستعيد بذهنه مرارة المواقف المحفورة في أعماقه حفرًا، تذكر حاله عندما كان يقدم جواز سفره للسلطات المصرية بمنفذ "السلوم" البري للعبور نحو ليبيا، ومنها نحو إيطاليا، ثم هولندا، فقد كان السفر وقتها متاحًا للمصريين إلى ليبيا دون تأشيرة مرور مسبقة، وذلك بسبب اعتماد الحكومة الليبية لفكرة القومية العربية، كانت المفاجأة أنه وجد اسمه على قوائم الممنوعين من السفر، مع أنه لم يقترف مخالفة قانونيةً في حياته.

بالسؤال والتحري، وجد "غريب"أن اسمه قد أدرج في قائمة المتهمين في قضية توظيف الأموال ضمن شركاء النصاب"شاكر أبو السعود"،وذلك في قضية شهيرة نشرت أخبارها بالصحف والفضائيات، وكان هذا المحتال قد أوهم المصريين بأنه يستثمر الأموال في مشروعات تدر عائدًا سنويًا بنسبة ٥٢% فجمع ١٠٠ مليون جنيه، وقبيل الهرب خارج البلاد تم القبض عليه، وتم التحفظ على ممتلكاته، ووضعه على قوائم الممنوعين من السفر، هو وكل مساعديه، عندئذ تأكد "غريب"أن هناك تشابها في الأسماء مع أحد المتورطين في جريمة النصب المحررة.

وكل ما أزعجه وقتها هو التأخير عن السفر، ولذا اتصل تلفونيًا بصديقه المحامي "عمرو صقر" ليتخذ الخطوات اللازمة، فسأله عبر الهاتف:

- غريب: كم من الوقت يلزم لتصحيح الخطأ في تشابه الأسماء.

- عمرو: ربما شهر أو أكثر.

- غريب: لماذا هذا الوقت الطويل.

- عمرو: الإجراءات القانونية معقدة، وربما تأخذ وقتًا أطول، لأن النيابة العامة هي صاحبة البت في طلب تصحيح الخطأ، وفي مثل هذه المواقف يتم تحري الدقة.

- غريب: اتخذ ما يلزم من إجراءات بالتوكيل القديم الذي حررته لك، وكل ما تريده من مستندات خذه من أمي، أما أنا سوف أسافر إلى ليبيا بطريقتي.

على فوره أخذ"غريب" قراره بالسفر عن طريق المهربين، والذين يساعدون الفارين من القانون، أومرتكبي الجرائم على مغادرة البلاد، عبر الطرق الصحراوية الوعرة، وفي مخاطرة غير محسوبة توجه نحو واحة "سيوة" المصرية، وقبيل الواحة بعدة كيلو مترات التقى المهرب، واتفق معه على تكاليف رحلة الهروب إلى ليبيا عبر الحدود.

وبعدها بيومين، ركب مع وفد استقل سيارات دفع رباعي نحو ليبيا،وعند الحدود المصرية الليبية وقفت السيارات، ونزل مع أربعة عشر رجلًا جميعهم يقصدون ليبيا، إلّا هو كان يقصد عبور البحر الأبيض المتوسط نحو الشمال، كانت وجوه رفاقه من الفارين تحمل علامات البؤس، بعضهم هارب من أحكام قضائية، وبعضهم هارب من الثأر، وبعضهم خرج يبحث عن كسرات من الخبز.

تجمعوا في صحبة الدليل، واستعدوا لعبور حقل الألغام الفاصل بين الحدود، كانوا يتحركون بحذر، ويخشون العبور، فربما هوت قدم أحدهم فوق لغم أرضي فمات مبعثرالأشلاء، كانوا يدعون التماسك، ويرتجفون من الداخل، تفصلهم عن واحة"جغبوب" الليبية بضعة أمتار، فوقفوا مع أحد مقتفي الأثر يتطلعون نحو الجانب الآخر، قاصدين عبورالممرات المحفوفة بالموت.

كانوا يتحركون مذعورين، ويعلمون أنهم إذا تباطأوا، فإن الصحراء القاحلة تطلب حياة المتقاعسين عن إنجاز المهمة، متى نفذ الماء والزاد، فأعمارهم

مرهونة بما يحملون فوق ظهورهم من مؤن للحياة، وهذا قانون الصحاري القاحلة، فكم قتلت ندرة الماء وجه الحياة فوقها!! وسوف تقتل من يتباطء في العبور من دروبها، وهذا هو التحدي، والرهان الذي لا يقبل التراخي.

تحركوا يرعبهم ما ينتشر على وجه الرمال من بقايا الأشلاء اليابسه، ومتنوعة، منها عظام، وجماجم بشرية، وأخرى حيوانية، فوق طرفي الشريط الحدودي المزروع بالألغام، كان مصير الموتى السابقين، يرعب الأحياء الحاليين، فربما انفجر لغم في أحدهم، فتحولوا معه ركامًا،وحطامًا.

المشكلة في أن هذا الحقل الكبير تـم زراعته بالألغام على الحـدود بين مصر، وليبيا أثناء الحرب العالمية بين دول الحلفـاء الذين سيطروا على مصر وقـوات المحور من إيطاليا، وألمانيـا الاتين كانتا تسيطران على ليبيـا، وكأن الاستعمار عندما رحل عن الشرق كان يأبي إلّا أن يترك الموت من خلفه، جاسمًا فوق أعمار البشر ليفنيهم.

عبروا الحدود والخوف ملء قلوبهم، وفي الأراضي الليبية استلم الركب مهربان آخران، ذهب معظمهم مع الأول، في سيارة نصف نقل مكشوفة، حيث مقصدهم نحو الجفرة بوسط ليبيا للعمل بالزراعة، وكانوا من فلاحي الصعيد.

تحرك الباقون نحو الشمال، وكانوا أربعة أفراد، ثلاثة منهم يقصدون منطقة سـرت، ليمكثوا للعمل فيها، أما "غريب" فسوف ينطلق بعدهم إلى"طرابلس"العاصمة، لعبور البحر نحو أوروبا، فركبوا جميعاً في صندوق سيارة ربع نقل، بعد أن سبقهم المُهرب ليركب بجوار السائق في كابينة القيادة، وهم يسيرون في الطريق، واستقربمنطقة"جلو"وبعد مغادرة واحة"جغبوب"ببضع كيلو مترات، حلّقت فوق السيارة طائرة هليكوبتر، من القوات الجوية الليبية التي تراقب الحدود، هبطت من الهواء لا يفصل بينها وبينهم إلّا بضع أمتار، أصاب الهلع الجميع، فسمعوا النداء عبر مكبر الصوت، يطالبهم بالتوقف:

- صوت الطيار :عليكم بالتوقف فورًا وإلّا سوف تُقصف السيارة بالرصاص ا

الحي، الطريق كله تحت سيطرة القوات الجوية اليبية.

توقفت السيارة، فوق طريق على جانبيه منخفض كبير، وهبطت الطائرة أمامها على الأرض، فسادت حالة من الذعر شلت تفكيرهم، ولكن "غريب"دون تفكير في المصير، قفز من الخلف بشنطة ملابسه الصغيرة، وتدحرج على الأرض يحتضن شنطته، فسقط على يسار الطريق في وادٍ منخفض في حضن الهضبة الصغيرة التي يمر من فوقها الطريق، فوجد نفسه بين الأشجار، والنباتات الصحراوية الجافة، وكادت أن تتكسر أضلعه من شدة السقوط، لولا أن شنطة الملابس التي بحوزته كانت تمتص عنه بعضًا من الصدمات، واستقر أسفل الوادي، لم يره أحد، صدمة زملائه جعلتهم ينسون من معهم، وبعد أن قُبض عليهم أدركوا أنه قد هرب.

ظل "غريب" مستلقيًا على الأرض لفترة لا يعلمها، ربما قضى يومًا،وهولا يدري، كان أسفل شجرة صحراوية شبه هزيلة في منحى ببطن الهضبة، فحمته مع التضاريس من حرارة الشمس الحارقة بالظل الظليل، وعندما عاد إليه وعيه، شعر بأن أوصاله ممزقة، كانت الكدمات والجروح منتشرة في أنحاء جسده، علاوة على أن شعوره بالظمأ كان شعورًا قاتلاً، فنهض مع الفجر يبحث عن الماء دون جدوى، هوى على أوراق الشجر بلسانه يمتص بعضًا من قطرات الندى، فلم يُشبع الرزاز عطشه، كان يبحث عن الماء بين الجفاف منهكًا، شربة الماء في الصحراء القاحلة تساوي كل ما يملك الإنسان.

تذكر الماء الذي طالما كان أهل قريته يهدرونه بسفه، سأل نفسه كيف لم ينتبه من قبل إلى تلك الكارثة التي ترتكب في وادي النيل كل يوم؟ لم تكن شدة الموقف تسمح له بالتدبر فيما مضى، فمرت خاطرة الإسراف أمام عينيه كما البرق، في اللحظة الفاصلة بين الموت والحياة يكون كل أمل المرء أن ينجو بعمره، تكاد الروح أن تغادر الجسد مطرودة بالظمأ، شفتا الفتى كانت يابسة، وحلقه يكاد أن يتشقق، وكلما حاول ابتلاعه يكاد أن يبتلع لسانه، لقد جف ريقه كما الحطب.

بحث طويلاً في أرجاء المكان عن بعض من الماء فلم يجد بئرًا واحدًا يسعف ضآلته، فالأشجار التي حوله من النباتات البرية التي تنمو على المطر، وهي الأخرى أوراقها ذابلة تنتظرالشتاء كي تحيا، وقد هجرها الطير للفرار بحياته من شدة العطش.

اختلط مع أول خيط للشروق عواء الذئاب الضالة، فعلم أنه إن نجى من الموت عطشًا سوف تأكله الذئاب لحمًا، تمنى الخلاص بدلا من هذا الفناء البطيئ، فما أقسى لهيب الظمأعلى بوابة الهلاك القادم من بحر الجفاف.

نظر إلى أعلى فرأى الطريق الذي فر منه هربا خشية حرس الحدود الليبيين، فقرر الصعود لعله يجد هناك من ينقذه. كان يتحرك إلى أعلى بصعوبة، ويحبو حبوًا كما الطفل، كلما تقدم خطوة يجره الوهن نحو الخلف خطوتين، مرت ساعات ولم يبلغ منتصف المنحدر، واشتدت حرارة الصحراء الملتهبة تلسعه بوهج كالنار، فيأكل الوهج في جسده، وكلما أوغل قرص الشمس المشتعل نحو منتصف السماء اشتد اللهيب، فبرزت الشمس في الآفاق كقاتل ثالث يطلب عمر الفتى، جلس على حافة الهضبة ليخرج من حقيبته الصغيرة قطعة من ملابسه، كي يلف بها رأسه،حتى يتلاشى ضربة الشمس المميته ولفحة الحرورالمتوهجة، بيد أن الإعياء كان يجذب ذراعيه إلى أسفل فلا يقوى على رفعهما، بات لف القميص القطني حول الرأس العارية أمنية يبددها الوهن.

بصعوبة بالغة تمكن من لف رأسه، وعاد مرة أخرى يحاول الصعود وهو يلهث من شدة الظمأ، تذكر صديقه "أسامة العربي" الذي ركب في قارب خشبي متهالك وهو في طريقه إلى إيطاليا بالعام الماضي، فمات غرقًا، لقد سبقه إلى العالم الآخر والماء المالح يندفع في جوف الغريق، فتشوى ملوحة الماء قلبه بالعطش،فرحل عن الدنيا غريقًا عطشانًا، وهو في بحر يعج بالماء الذي لايروي، كما هي حاله في مثل هذه الساعة، ربما الآن لن تستقر رفاته إلّا في جوف الذئاب كما دفنت أشلاء "أسامة العربي" في بطون الأسماك المتوحشة، ربما كانت طريقة الموت مختلفة، ولكن المصير واحد.

وقتها كان كأنه يسمع صوت جنازته بأذنيه، فيبكي ليس على نفسه فحسب، بل على لوعة أمه عندما يزف لها الخبر المشئوم، لم يهب من الموت في ذاته بقدر ما هاب من حسرة الأم عليه، كان يبكي خوفًا من جزعها بلا صوت، فقد جفت الأحبال الصوتية في حنجرته، وعجزت عن الحركة، كانت مرارة البكاء في أنه صامت، فتسقط الحسرات الجافة بدلا من الدموع في جوفه.

تخيل صورة أمه أمامه، وهي تحسو التراب فوق رأسها، تلك الصورة جعلته يقاوم الموت كحصان عربي أصيل حمل على نفسه في ساحة الوغى ليمنح فارسه حلاوة النصر، فصعد على قارعة الطريق مع الظهيرة ثم سقط على الأرض فاقدًا للوعي بلا حِراك، ربما يفصل بينه وبين الموت دقائق أو ساعات.